الحرب النفسية في العراق القديم

الاستاذة الدكتورة حميدة سميسم*

تمهيد

قدر لحضارة وادي الرافدين، التي شهدت أول حرف للكتابة، وطلائع النظام السياسي في تأريخ البشرية أن تضع أول أصول تطبيق ظاهرة التعامل النفسي، وبالذات الحرب النفسية، ولكن بالرغم من ذلك فقد عانت ومازالت تواجه هذه الحضارة بالتجهيل الذي قد يكون متعمدا والإغفال الواضح وبشكل خاص في الأدبيات الإعلامية العربية، حيث لا يتجاوز مما كتب عنها في هذا المجال بضع اسطر.. !!، وانه لأمر غريب حقا؟ بأن اقدم النصوص والشواهد المتوفرة حاليا حول استخدام الحرب النفسية في العراق القديم، تعود الى ما قبل خمسة آلاف عام تقريبا، وهي لوح مسماري كتب باللغة السومرية ويتضمن كما يقول صموئيل كريمر في كتابه [ألواح سومر][1] : قصيدة تدون لنا حادثة سياسية تنطوي على استعمال الأساليب السياسية من اجل الغلبة والقوة، التي يتبعها أهل عصرنا ويومنا الراهن.

وفي هذه القصيدة المعنونة باسم أينمر كار وسيد آرتا يروي لنا الكاتب السومري الذي دونها.. انه كان يعيش بطل سومري مشهور اسمه أينمر كار ويحكم في مدينة اوروك أي الوركاء والى الشرق منها بمسافات بعيدة في بلاد فارس كانت تقع مدينة آرتا التي يفصلها عن اوروك سبع سلاسل من الجبال وهي فوق قمة شاهقة يصعب إدراكها وبلوغها، ولكن أينمركار بعد نشوب الحرب بين المدينتين صمم على جعل أهلها وحاكمها تابعين له، وشرع لتحقيق ذلك بشن الحرب النفسية على حاكم آرتا وعلى سكانها فأفلح في كسر روحهم المعنوية، وتثبيط هممهم حتى وصل الأمر الى أن يصيروا أتباعا لمدينة اوروك وملكها أينمر

---

* أستاذة الحرب النفسية في قسم الاعلام / كلية الآداب - جامعة بغداد.

كار وذلك من خلال مراحل متعددة، بثت الرعب تدريجيا في قلب حاكم آرتا، والتي وصلت في المرحلة الأخيرة الى الإنذار بالتدمير الشامل من قبل البطل السومري، إذا لم يقدم حاكم المدينة وسكانها أحجار الجبل ويبنوا له معبد أريدو ويزينوه[٢].

ويبدو واضحا من الوقائع التي أوردتها القصيدة، أن ما حدث كان تدرجا في المنطق الدعائي وصولا الى استخدام استراتيجية الرعب اتجاه العدو، ومن خلال ما نعرفه اليوم بالحرب النفسية بالإستراتيجية.

لقد شهدت الحرب النفسية في حضارة وادي الرافدين تطورا ملموسا بدء منذ عصر دويلات المدن في جنوب العراق، ومرورا بالإمبراطورية الأكدية وسلالة اور الثالثة ثم الدولة البابلية وليبلغ في خلال الألف الأول ق.م. ذروة التقدم مع الفكر العسكري الآشوري حيث فاقت الأساليب التي استخدمها الآشوريون، كل أساليب الحرب النفسية المعروفة قبلهم أو المتزامنة معهم، ولا عجب من ذلك لأنهم أرادوا إشاعة الأمن والرخاء في أرجاء إمبراطورية مترامية الأطراف. فمع كل الاستعدادات التي كانت تستحضر للمعركة على صعيد الإعداد والتخطيط والتجهيزات، فقد كان الأيمان عميقا بأن النصر من صنع الآلهة ولأجلها، فأرض الأعداء عدوة للإله وملك الأعداء حنث بقسم الآله ولذلك وجب تأديبه، والنصر حليف من يأخذ بيد الآله ويعمل على كسب رضاه[٣].

هذا التطور في حضارة وادي الرافدين، ارتبط بمتغيرين هامين، أولهما : نشوء النظام السياسي في بلاد سومر. والتي يشكل القسم الجنوبي من العراق الآن. عند حدود الألف الثالث قبل الميلاد بظهور دول المدن City States في عصر فجر السلالات، وثانيهما تطور استخدام السلاح الذي فرض هو الأخر على الحرب النفسية أساليبا وتقنيات معينة.

وبالنسبة للمتغير الأول فأنه قبل ظهور نظام دولة المدينة، في عصر فجر السلالات شهد السهل الرسوبي منذ الألف الخامس ق.م. ظهور أولى مراكز الاستيطان البشري ثم تطورت المراكز الفلاحية هذه الى مدن في العصر الشبيه بالكتابي في منتصف الألف الرابع ق.م. وان عرفت هذه المستوطنات أشكالا في

السلطة ألا أنها لم تعبر عن شكل سياسي للحكم، حتى ظهور نظام الدولة المدينة حيث تفردت حضارة وادي الرافدين بنشوء أول شكل من أشكال الحكم في التأريخ البشري، نعرفه حاليا.

وكان نظام الدولة المدينة نظاما متطورا لا يشبه ما ظهر في حضارة وادي النيل قبيل قيام المملكة الموحدة في عهد الاسرات الأولى، ولعل أقرب شيء يضاهيه نظام دولة المدينة في الحضارة الإغريقية Polis، حيث كان ذلك النظام في كلتا الحضارتين النظام النموذجي للوحدة السياسية والدولة، والذي تمت فيه فكرة المواطن والمواطنة Citizenship.

هذا التطور الهائل ممثلا بظهور النظام السياسي، القائم على فكرة المواطنة في الدولة المدينة قد قاد ولأول مرة الى ظهور الحروب المنظمة بين دويلات المدن في بلاد سومر، ومن ثم ظهور الحرب النفسية كأداة مهمة متصلة بالحرب الجسدية، بين هذه الدويلات، الأمر الذي يوضح بكل جلاء انه ليس هناك من استخدام مقنن ومدروس للحرب النفسية، قبل نشوء الحروب المنظمة التي كانت وليدة الصراع بين الدول المدن الناشئة ونظرة سريعة الى صراع هذه الدويلات خلال عصر فجر السلالات توضح لنا أبعاد ذلك(٤).

ولكن ما كان للحرب النفسية، ولا الحرب الجسدية ذاتها أن تشهد التطور الكبير من حيث الاستخدام لولا تطور خطير أعقب عصر فجر السلالات، وهو ظهور اتجاه تأريخي رافض لوجود الدولة المدينة، من خلال سعيه الى فرض نظام دولة القطر أو المملكة الواحدة التي تضم دويلات المدن هذه من دولة واحدة، ونظام سياسي واحد، والذي بدأ لوكال زاكيزي حاكم مدينة اوما، بالسيطرة على المدن المجاورة، وكان بمثابة العامل الرئيسي الذي مهد الطريق أمام سرجون الأكدي في إقامته دولة القطر الموحدة وهي أول إمبراطورية في التأريخ نعرفها حتى الآن. وكان ظهورها إيذانا بدخول الصراع الجسدي والنفسي مرحلة جديدة مازالت سائدة بمفاهيمها الأساسية حتى عصرنا الراهن.

اذن فقد استوجبت السياسة الخارجية لهذه الدويلات المتصارعة المتنافسة الى دفع الملوك والقادة العسكريين الى استنباط واستخدام جميع الوسائل التي تكفل

لهم إخضاع إرادة الطرف المعادي من جانب، وتعزيز الروح المعنوية لمواطني هذه الدويلات من جانب آخر والذين كانوا يمارسون نوعا من المشاركة السياسية في الحكم من خلال مجلس المدينة المسماة دائرة الشعب (اوكن Ukkin) ومجلس شيبة المدينة (شيبوتالم Shibutalim)[٥].

وقد جاء تطور النظام السياسي في الإمبراطورية الأكدية ثم البابلية فالآشورية، ليضفي على الحرب النفسية والجسدية أبعادا جديدة فيما بعد، فلم يعد العدو كائنا سياسيا يمكن أن يصبح جزءا من الكيان السياسي العام القائم، وأنما عدوا لابد من تحطيمه وإخضاعه، وذلك يعد انتقال الصراع خارج حدود الدول، وبروز مفاهيم أمنية وتطبيقاتها بالنسبة لها. حيث كان الامتداد ما بين الخليج العربي والبحر المتوسط استراتيجية لابد منها لكل حكام العراق القديم لضمان أمن وسلامة دولهم.

أما المتغير الثاني ونعني به تطور استخدام السلاح، مما لاريب فيه أن أول سلاح صنعه الإنسان لم ينجز إلا بعد أن تطور الإنسان تطورا حياتيا من حيث سعة حجم الدماغ والقدرة على تحريك أعضاء الجسم، وذلك لأن صنع السلاح وفق أسلوب خاص يحتاج الى قدرة من التفكير، وهذا هو الذي دفع بعض علماء الانثرويولوجي، اي علم الإنسان، الى تعريف الإنسان وتمييزه عن المخلوقات الأخرى بأنه الكائن الحي الذي يستطيع صنع الآلة. وتأريخ اقدم إنسان على الأرض يرتبط ارتباطا مباشرا بأقدم آله أو اقدم سلاح[٦]. لذا فأن التطور في استخدام الأسلحة إنما يعبر عن تطور معين في استنباط أساليب قتالية جديدة وهذه بدورها لابد أن تترك آثارها على الحرب النفسية ذاتها، فظهور الصراع بين دويلات المدن والتي كان أكثرها بين مدينتي اوما و لكش قد دفع بها الى تشيد الأسوار حول المدن، بعد أن ظل القتال لفترة معينة يتم خارج المدينة، ويستوجب نوعا معينا من التعبئة العسكرية، ولكن دخول الحرب عالمها المنظم والدائم، ومن اجل تحقيق الدفاع الذاتي بوسائل أخرى، نشأت الحاجة الى ظهور الأسوار حول المدن، وقد كانت مدينة الوركاء كما تخبرنا النصوص المسمارية من المدن القديمة التي أحيطت بسور دفاعي في عهد كلكامش في حدود ٢٧٥٠ ق.م. وكان طوله

تسعة كيلو مترات، ومن خلاله كان كلكامش يتصيد الأعداء كما تصاد الطيور مثلما جاء في بعض كتابات مدينة الوركاء[٧].

وفي هذا الصدد لابد أن نذكر واحدة من أهم الأحداث التي تمثل فهم كلكامش واستخدامه لأساليب الحرب النفسية في مواجهة عدوه ملك كيش أثناء الصراع الذي احتدم بين اوروك و كيش في العصر السومري القديم، فقد أرسل آكا ملك كيش انذارا الى كلكامش يطلب منه الاستسلام ودفع الجزية وهدده بالحرب، فعرض كلكامش الإنذار على مجلس كبار السن في المدينة والذي وافق على طلب آكا لكن كلكامش عرض الأمر على مجلس الشباب القادرين على حمل السلاح والذي كان كما يبدو اكثر أهمية فرفضوا إنذار آكا، وفعلا رفض كلكامش انذار آكا والذي تقدم بجيش حملته السفن وهاجم اوروك ولكن كلكامش، لم يحاربه بل أرسل له رسالة مع أحد أعوانه وفعلا حمل الأخير الرسالة وخرج من سور اوروك ولكن جند كيش امسكوا به وضربوه ضربا مبرحا أحضروه أمام آكا و بعد أن فشلت هذه المحاولة صعد على سور اوروك ضابط ثم تبعة كلكامش لتقدير قوة العدو المهاجم المحاصر للمدينة، ولكن ما أن رأى أهل اوروك صعود كلكامش على السور حتى اخذوا يعفرون أنفسهم بالتراب وهاجوا خوفا عليه من الهلاك، وهذا العمل الذي ربما كان مدبرا من قبل كلكامش اثر على معنويات سكان اوروك وكان له أيضا تأثيره على آكا ملك كيش حيث قام بعد أن رأى أهل اوروك على الأسوار بقطع صواري سفنه التي تقل جنده وانسحب وهنا اخذ كلكامش يكيل المدح الى آكا حيث أخذ يثني عليه جزافا بقصيدة مدح[٨].

اذن نشوء هذه الأسوار دفع الى بروز الحاجة الى اختراع راجمات الأحجار واستخدام القوس والنشاب في القتال بعد أن كان محصورا على الصيد، وهذا بدوره قد أدى الى جعل المواجهة بين القوات المتحاربة لايتم وجها لوجه، وأنما بشكل غير مباشر، الأمر الذي استدعى أن تكون وسائل وأدوات الحرب النفسية وسائلا غير مباشرة أيضا، وعلى سبيل المثال استخدم الاستعراضات العسكرية في هذا المجال، بأعتبارها نوعا من الحرب النفسية بالاستراتيجية، بل وحتى هذه الاستعراضات استوجبت استخدام السيوف لإشاعة الهيبة والانضباط في هذه

الاستعراضات بالرغم من انه لا يستعمل في أي قتال لأنها كانت مصنوعة من البرونز القليل الصلابة[٩]. كما أن استخدام العربات الحربية استلزم تعبئة محددة للجنود في ساحة المعركة، لمواجهة الصدمة النفسية العنيفة التي تحدثها لدى تركيز هجومها على قطعة معينة من قطعات الجيش. وهكذا يبدو واضحا أن هذين المتغيرين قد مارسا دورا حاسما وخطيرا في تأريخ العراق القديم.

أشكال وأساليب الحرب النفسية في العراق القديم

عندما نتحدث عن أشكال وأساليب الحرب النفسية في حضارة وادي الرافدين، فأن من الصعوبة بمكان حصر هذه الأشكال والأساليب، لاختلاط المفاهيم، وتداخل الأشكال، فأن كانت دعاية الميدان والإشاعة واضحة الشكل والمفهوم والاستخدام، فأن الأعلام بمعنى الأخبار والحرب النفسية لايبدو واضحين تمام الوضوح، ناهيك عن اختلاط ذلك بأشكال وأساليب التعبئة العسكرية.

الا أن ذلك كله لايمنع من تحديد شكلين هامين من الحرب النفسية هما الحرب النفسية بالاستراتيجية، والحرب النفسية التكتيكية، حيث يسيطران على محمل العمل النفسي، ولعل مرد ذلك أن الحرب النفسية حتى تلك اللحظة ظلت لصيقة القتال الجسدي وتابعة له، ولم يكتب للظاهرة أن تستقل لوحدها.

أن أهم الأشكال التي اتخذتها الحرب النفسية في العراق القديم هي :

أولا - الحرب النفسية بالاستراتيجية

ويكمن جوهرها كما أسلفنا في معالجتها للتأثير الشامل للاستراتيجية بأوسع معانيها على الوضع النفسي للعدو واستعداده للمقاومة، من خلال التأثير السايكلوجي للاستراتيجية والمتمثل بخلق الانطباع في ذهن قادة العدو، أو لدى معظم السكان المدينتين وجنوده، أو لدى الجانبين معا بشكل عام، بأن الحرب خاسرة، وان المقاومة المنظمة هي بلا جدوى، وفي مثل هذه الحالة يصبح الدافع المسيطر لدى معظم الأفراد هو أن يهتم كل شخص بنفسه، فتكون النتيجة الاستسلام المنظم أو انهيار الأطر السلطوية والعسكرية[١٠]. وفي مثل هذا الصدد يشير ليدل هارت في كتابه استراتيجية النهج غير المباشر الى انه: عندما نستعرض المعارك الحاسمة في التأريخ، نجد أن جميع هذه المعارك تقريبا فرض

المنتصر على المنكسر شروطا نفسية أثرت في رأيه من قبل وقوع الصدام، ويورد ٢٩ مثالا من معركة الماراثون بين الفرس واليونانيين وحين معركة سيدان التي دارت في عام ١٨٧٠م بين القوات الألمانية والفرنسية، أسفرت عن هزيمة فرنسا(١١).

والعراقيون القدامى مارسوا هذا الشكل من الحرب وطبقوه كمفهوم ببراعة كبيرة أدت الى حسم العديد من المعارك حتى قبل أن يبدأ الصدام المباشر مع أعدائهم، ففي الحملة التي جردها الملك الآشوري سرجون الثاني في ربيع عام ٧١٤ ق.م.، ضد الميديين والاورارنيين أدت الانتصارات التي أحرزها الجيش الآشوري، أثناء زحفه نحو موصامير عاصمة الاورانيين، الى فزع واضطراب سكان العاصمة حيثما وصلهم نبأ وصولهم الى أطراف المدينة، فتخلوا عن مدينتهم وعن ملكهم روسا الثاني الذي انتحر عند رؤيته القوات الآشورية المطبقة على المدينة المحصنة كعش النسر كما اخبرنا نص حملته الثامنة(١٢).

وقد اتخذت عملية تطبيق مفهوم الحرب النفسية بالاستراتيجية أشكالا متعددة أهمها:

الاستعراضات العسكرية

سواء أكانت قبل بدء المعارك أو أثناء دخول المدن بعد اقتحامها، وكان الهدف الأساسي منها أشعار الأعداء بضخامة قوة الجيوش في العراق القديم. وبعدم قدرتهم على مواجهة الجيوش الجرارة بالآلات الحربية المرعية التي تمتلكها. وربما يكون اقدم الإشارات عن أول استعراض عسكري في تأريخ جيوش العالم، وردتنا من خلال ملحمة كلكامش، ملك اوروك الذي أقام استعراضا عسكريا في المدينة لقواته قبل أن يتوجه الى حرب الأعداء، وكان الهدف منها واضحا هو أظهار قوة جيش اوروك، وعزمه على الانتصار في الحرب. وقد سار على هذا المنوال العديد من ملوك المدن السومرية. وجاء سرجون الأكدي مؤسس الأمبراطورية الأكدية، ليجعل من الاستعراضات العسكرية واقامة المسلات والنصب وإرسال الأسرى واستعراضهم في العاصمة أكد جزءا أساسيا من أعماله الحربية الواسعة، وسار حكام أكد على النهج نفسه، حيث حرص الملوك الأكديين، كما بينت لنا المنحوتات الأكدية، على الحرص على إحصاء أعداد الأسرى وجلبهم

مكبلين بالقيود الى بلاد أكد بعد تحقيق الانتصار على أعدائهم كدليل مادي على تلك الانتصارات، وكوسيلة من وسائل الحرب النفسية والتي ما زالت تستخدم لحد الآن من اجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين ومن ورائهم بقية المواطنين، لذا فقد كان من المألوف أن يرسل الأسرى مقيدين بالأغلال الى المدن المقدسة والى العاصمة كما كانت ترسل الغنائم من الأموال والمسلات والتماثيل الخاصة بالأعداء، الى العاصمة كدليل آخر على الانتصار. وقد تباهى الملك ريموش بأنه جلب ٥٩٨٥ رجلا أسيرا من مدن الأعداء ووضعهم في المعسكرات. في حين يذكر في نص آخر، انه في أعقاب أنتصاراته على العيلاميين أحصى اكثر من ١٧ ألف من القتلى واسر أربع آلاف رجل، والرقم كما يبدو مبالغا فيه، وفي منحوتة أقيمت تخليدا لأحد الانتصارات الأكدية، هناك مشهد يحصي الأسرى الذين يظهرون حسب العرف الذي كان سائدا آنذاك عراة وهم يمرون أمام الملك واحدا اثر الآخر مقيدين بحبال تمنع هروبهم، وتشدهم سلسلة غليظة تعوقهم من أية حركة تتخطى سيرهم الحثيث[١٣].

وتمثل عودة الملك البابلي نبوخذ نصر الأول منتصرا في حربه ضد العلاميين واسترجاع تمثال الآله مردوخ، كبير الآلهة البابلية والذي كان قد سرقه العيلاميون، والاحتفالات التي أقيمت في بابل أثناء استعراض عودة الجيش البابلي المنتصر نموذجا لأهمية الاستعراضات العسكرية لدى ملوك العراق القديم والتي تبرز مدى عظمة البلاد وقوتها[١٤].

وقد جاء الآشوريون بعد ذلك، ليقدموا اكثر النماذج ابداعا بهذا الخصوص، حيث كانت ذروة استخدام الحرب النفسية بالاستراتيجية من خلال استعراض القوة إذ أنتقل تطبيق المفهوم من داخل أسوار المدن الى خارجها، فلم تعد استعراضات القوة العسكرية أو بعد احراز النصر، وأنما أصبحت هناك حملات كبرى يتم تجريدها، لا للقضاء على تمرد معين أو مواجهة عدو في معركة، وأنما تنتقل الجيوش من مدينة الى أخرى، وتزحف من مكان الى آخر دون أن تدخل في صدام وقتال فعلي، وكان الهدف سايكولوجيا بحتا، وهو اثارة الخوف والرعب في نفوس الأعداء، واستبعاد أي فكرة بالمواجهة لديهم، وبذلك فأنها كانت تمثل نوعا من

الاستراتيجية الوقائية. وتبرز هنا نوع خاص من الأعمال التي قام بها الملك الآشوري سنحاريب فقد أدت المناورة التي قام بها واستعراض قواته ضد عيلام الى موت الملك العيلامي حوفاً ونصب مكانه ملكا آخر قليل الخبرة، وهو ما قصده سنحاريب. وكذلك لا يفوتنا أن نذكر هنا المناورات العسكرية التي قام بها الملك الآشوري آشور بانيبال من خلال استعراض قوته أمام ألمانيين عند الحدود الشمالية الشرقية للعراق، حيث أدى ذلك كما تخبرنا الحوليات الآشورية الى أصابتهم بالذعر والفزع فقاموا بقتل ملكهم ونصبوا آخر بدلا منه مواليا للآشوريين(١٥).

وقد تجلى تطبيق هذا المفهوم في العراق القديم، في أروع نماذجه مع الملك البابلي نبوخذ نصر الذي غطى في سنة حكمه الأولى ٦٠٤. ق.م، بجيشه سوريا متنقلا بين مدنها دون أية مقاومة، حيث بقى في المنطقة ستة اشهر قدم فيها اليه حكام الولايات الصغيرة في سوريا وفلسطين فروض الطاعة وكميات كبيرة من الأموال، وكان الهدف من هذه الحملة ثم الحملات الأخرى ولأكثر من عشرة سنوات تلت تسلمه العرش، إظهار القوة البابلية وتوطيد الأمن في ربوع المقاطعات الغربية. وكذلك ما فعله في عام ٥٩٥. ق.م. وهي السنة التاسعة من حكمه، إذ قاد نبوخذ نصر حملة بابلية بأتجاه الحدود الجنوبية الشرقية للدولة وعبر نهر دجلة لوضع حد للاضطرابات التي حاولت عيلام أثارتها على الحدود الأمبراطورية البابلية في تلك الجهة، غير أن العيلاميين تراجعوا الى داخل مناطقهم بعد أن اصبح نبوخذ نصر على مسيرة يوم واحد من أماكن تجمعهم خوفا من الاشتباك بمعركة خاسرة مع الجيش البابلي(١٦).

ثانيا - الحرب النفسية التكتيكية

الحرب النفسية في مستواها التكتيكي تعني حرب الصدام المباشر مع العدو، وتوجه عادة ضد جيوش العدو في ميدان القتال أو في قواعده أو ضد رعاياه المتواجدين في منطقة القتال، وتكون العمليات في هذه الحالة عمليات تستهدف أضعاف مقاومة قوات العدو، أو مطالبة الشعب بالتعاون مع القوات المسلحة المتقدمة، ووضع العدو في حالة نفسية هي حالة الهزيمة والاستسلام، ولكنها تخرج أحيانا عن هذا الأطار، حيثما تكون موجهة الى فئة معينة، اقليات عرقية ودينية أو

مجموعات معينة في مراكز السلطة داخل قيادة العدو ومراكزه السلطوية لتحقيق أهداف معينة محددة، وبالتالي تخرج من منطقة القتال الفعلي، وتختلط بالحرب النفسية الاستراتيجية بشكل واضح[١٧].

لقد عرفت حضارة وادي الرافدين، استخدام الحرب النفسية التكتيكية على نطاق واسع وعبّر هذا الاتساع عن فهم دقيق وعميق أيضا لأكثر أساليب هذه الحرب أهمية، وهو أسلوب **دعاية الميدان** والتي تعني الأجراءات التي غالبا ما تقوم بها الجهات العسكرية بهدف التأثير المباشر على قطعات العدو، لزيادة الارتباك واضعاف المعنويات[١٨].

دعاية الميدان

أن دعاية الميدان بوصفها أهم أشكال الحرب النفسية التكتيكية، ارتبطت في حضارة العراق القديم بمتغيرين هامين أولهما، طبيعة التعبئة العسكرية وتطوراتها. وثانيهما تطور استخدام الأسلحة وتنوعها، والذي ترك تأثيره الكبير، ليس على طبيعة التعبئة فقط، وأنما على أساليب دعاية الميدان أيضا.

فالتعبئة العسكرية كما أظهرتها المخلفات الأثرية، التي جاءتنا بدايات العصر السومري القديم، أظهرت أن الجيوش العراقية القديمة كانت تستخدم نظام الصف أو ما يدعي بنظام الكراديس، اذ ينتظم الجنود أثناء المعركة وأثناء الدفاع في وضعية لا فراغ فيها بين جندي وآخر، وهم يحملون الرماح والدروع ويغطون رؤوسهم بالخوذ الواقية، وهذا ولاشك ما يمنع العدو من اختراق هذا النظام بسهولة، وكانت العربات الحربية تستخدم الجنود المهاجمين مثلما تتقدم الدبابات هجوم المشاة في الحروب الحديثة[١٩].

وهذا ما انعكس بشكل واضح على استخدام الحرب النفسية التكتيكية، فقد اعتمد السومريون الصدمة العنيفة، من خلال استخدام العربات في اختراق صفوف الأعداء، حيث تؤثر الصدمة الحادة والقوية على قوات العدو مسببة تشتت قواه من خلال اثارة الذعر والخوف بين جنوده. ومع ظهور الأسوار والتحصينات العسكرية، ظهرت أيضا راجمات الحجارة، لتحقق كثافة نارية حسب المصطلحات العسكرية الحديثة، ضد العدو، والهدف هو بث الذعر والخوف، وتقييد حركة جنود

الأعداء. وتذكر لنا النصوص السومرية، في وصف للملحمة الخاصة بالمعركة التي نشبت في حدود ٢٦٠٠ ق.م، بين مدينة آرتا هذه الحقيقة حيث ورد ما يلي[٢٠]:

(في ذلك الوقت تبع سكان سلالة الوركاء الملك أنمير - كار مثل رجل واحد، فعبرت جيوشه الجبال المحيطة بمدينة آرتا زحفا كما تزحف الأفعى بين أكوام الحبوب، وعندما وصلت الجيوش منطقة قريبة من مدينة آرتا بدأت راجمات الأحجار ترمي أحجارها التي ساوت كميتها كمية قطرات الأمطار التي تسقط خلال سنة كاملة فسقطت بذلك الأحجار بكثافة على أسوار مدينة آرتا).

ويبدو بكل جلاء من هذا النص أن استخدام الحجارة المقذوفة بهذا الكم الهائل والذي قد يكون مبالغا فيه، ليس في حقيقته الا نوعا من أنواع تكتيكات الفزع التي تعد واحدة من أهم أدوات دعاية الميدان والذي تستخدمه الجيوش المعاصرة من خلال الكثافة النارية العالية التي تركز على أحد الجهات أو المواقع، وفقا لنظريتي دوهيه ومشتل المعروفة عسكريا، حيث هدف القصف المركز تدمير معنويات السكان والمقاتلين. اذن فالعراقيون القدماء عرفوا هذا المفهوم، وطبقوه من خلال استخدام راجمات الحجارة والسهام والرماح بأعتبارها من الأسلحة الساندة للمشاة، قبل بدء الاشتباك واثنائه.

أن أهم ما يجب ملاحظته بهذا الخصوص أي تأثير التعبئة العسكرية على أساليب ووسائل الحرب النفسية، أن تطورات التعبئة العسكرية لدى البابليين، ثم الآشوريين، قد خلقت أساليبا جديدة اختلفت بأختلاف استخدام هذه التعبئة في الأماكن المكشوفة والمرتفعات الجبلية أولا، ثم القتال في المناطق السهلية والمفتوحة ثانيا. فقد استخدم الآشوريون أساليب تعبوية متنوعة في مواجهة المدافع الحصينة، من خلال استخدام أسلوب حصار المواقع والمدن، حيث عملوا بطرق متنوعة على أضعاف دفاعات العدو ومحاولة كسره عسكريا وتقنيا وصولا الى إجباره على الاستسلام أو العمل على تدميره، ومن خلال تلك الطرق قطع المدينة عن ما يحيط بها من كل شيء وصولا الى قطع مصادر المياه وموارد العيش وهذا

الحصار قد يستمر لمدة اشهر اوسنوات كما حدث في حصار أورشليم اوحصار السامرة في فلسطين[٢١].

كما ادت القوة الرادعة للجيش الآشوري، وبخاصة صنوف الخيالة والعربات التي كانت مشهورة بأحداث صدمات عنيفة في الجيش المعادي ومعنويات أفراده، الى إجبار الأقوام الأخرى الى تحاشي منازلهم والتحصن بقلاعهم التي لم تستطع حمايتهم من بطش الآشوريين لابتكارهم أسلحة ومعدات الحصار ولاستخدامهم الأساليب الجديدة التي كثيرا ما كانت تمثل عامل مفاجئة للأعداء، وهذه المفاجأة غالبا ما تشل تفكير الخصم وتدفعه الى الاستسلام.

ولكن تبقى اكثر أساليب الحرب النفسية التكتيكية في العراق القديم اثارة للإعجاب حتى وقتنا الحالي، هو عدم توجيه هذه الحرب نحو جنود العدو وسكانه المدنيين فقط، وأنما استهداف قيادة العدو، سواء أكانت القيادة المتواجدة في ساحة المعركة، أو خارجها، من خلال تصفيتها جسديا، والتلاعب بمدركاتها السياسية والعسكرية، ودفعها الى اتخاذ قرارات خاطئة لابد أن تسبب لها الدمار والهلاك، وفي هذا الاتجاه لجأ الآشوريون الى الاغتيال السياسي، للملوك والقادة المناوئين ولدينا العديد من النصوص المسمارية التي تشير الى ذلك، ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد. فبعض الرسائل من مدينة ماري تشير الى تحذير الملك من التجوال في المدينة قبل القبض على بعض الرجال المتآمرين وايداعهم السجن والحاق الهزيمة بالمعتدين، ونص آخر تقدم فيه النصيحة للملك بعدم دخول المدينة لثلاثة أو أربعة أيام، ونص فأل يهيب بالملك استخدام كبار موظفيه وحاشيته وحزمه لحراسه وعدم السماح له بالمسير بمفرده، كما توجد إشارات أخرى من إعدام أو إنهاء رؤوس العصابات بطرق مختلفة منها اخفاؤهم الى الأبد، واعدامهم والتمثيل بهم لجعلهم عبرة لكل من تسول له نفسه بالتآمر والتعاون مع الأعداء وكما يبدو فأن النصين الأخيرين يشيران بكل صراحة الى فهم الآشوريون لأمكانية استخدام هذا السلاح ضدهم، لذلك فقد اتخذوا التدابير الوقائية أمام هذه الأعمال.

ولم يكتف الآشوريون بذلك، وإنما عمدوا الى بث الصراع بين قادة العدو، وإدخال عدم الثقة الى نفوسهم والعمل على التشكيك بقدرة قادتهم على حمايتهم

وصولا الى العمل المستمر من اجل أن يتخلى الناس عن القادة ويهربوا من الجيش[٢٢].

أما اطلاق الاشاعات بين جنود الأعداء ومواطنيهم، فقد بلغ تطورا كبيرا لدى العراقيين القدماء، ويكفي في هذا الصدد أن نشير الى انه كانت هناك مجموعة من الرجال خاصة بأطلاق الاشاعات ونشرها. وان معرفة مدى نجاح هؤلاء الرجال يمكن استكشافه من خلال تهويل حجم الجيش الآشوري وأساليب بطشه بالأعداء أو يترك بعض الأعداء الذين يؤسرون بالحرب الهرب والتوجه الى أهاليهم وبلادهم ليقصوا عليهم ما حل من دمار وخراب بجيوشهم وجيوش حلفائهم[٢٣].

ولم يكتف الآشوريون بذلك، وأنما كانوا يقومون بتشجيع الرجال من سكان البلاد المعادية على الهجرة والهروب الى جانبهم عن طريق تقديم الهدايا والمكافآت للمحاربين منهم، وما يلقونه من حفاوة وتكريم في البلاط الآشوري، فقد جاء في أحدى الرسائل من زمن سرجون الثاني عن هروب عدد من الضباط وحامل العلم من القلاع الميدية والارمينية، وان هؤلاء سيرسلون لمقابلة ولي العهد[٢٤].

الخاتمة

وهكذا يتضح أن الحرب النفسية في بلاد ما بين النهرين، التي شهدت اقدم حضارة في تأريخ البشرية قد رافقت نشوء هذه الحضارة وكانت تعبيرا عن الحالة الصراعية التي شهدتها دويلات المدن في العراق أولا ثم مع العدو الخارجي.

وهنا لابد من التوقف عند اكثر الظواهر أهمية وهي أن الصراع عندما كان عراقيا - عراقيا بين دويلات المدن، لم يعرف حالة الحرب النفسية في أقصى حالاتها الاستئصال الجسدي، وأنما كان يمزج ما بين العمل الدعائي والحرب النفسية، ولكنه عندما كان هذا الصراع عراقيا - أجنبيا، فأنه يصل الى ذروته، دون أن يعرف حالة للفصل، وهذا ما يحتاج الى دراسة خاصة به تبحث في رؤية صانع القرار السياسي في العراق القديم.

كما أن الحرب النفسية في بلاد مابين النهرين، والتي تعد أول حرب نفسية بحق قد اتسمت بأنها لم تكن ألا أداة مساندة للقتال العسكري، أي أنها نوعا من

القتال النفسي ليس ألا وأن اتخذت أشكالا وأساليب معينة، كذلك فأن ظهورها قد ارتبط بظهور وقيام الدولة ككيان سياسي قائم، وكان الاهتمام بها مرتبط بظهور القادة السياسيين، والذي أولاها بعضهم درجة فائقة الأهمية، في حين لم تمتلك ذلك مع قادة آخرين. وبذلك يكون العراق اقدم ارض وشعب عرف الحرب النفسية في تأريخ البشرية.

الهوامش

(١) كريمر صموئيل، ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مطبعة مصر، بلا تاريخ، ص٦٦-٧٨. وأيضا

S.N. Kramer, Enmerkar and the Lord of Aratta, (Philadelphia, 1952).

أن أهم ما يلاحظ في هذه القصيدة بخصوص الحرب النفسية أن أينمر كار قد اخذ رأي آلهة مدينته، وهي الآلهة اينانا [عشتار] التي نصحته بأرسال مندوب يعبر الجبال، وطمأنته بأستسلام جيش آرتا وقد قام المندوب بأخبار سيد آرتا بما فعله أينمر كار في طلبه لنصيحة اينانا وكيف وعدته بالنصر، وهي محاولة نفسية واضحة لكسر معنويات سيد آرتا انظر حول ذلك.

R. R. Jestin, Le POEM "Enmerkar, Revue de histoire de Religsons, Vol. 151, (1957) P.P. 145, F.F.

(٢) حول استخدام السحرة والذين أرسلهم سيد آرتا الى اوروك للتأثير على ملكهم وسكانهم من خلال السحر، وكيف أن أينمر كار قابل ذلك مماثل، افشل الأعمال السحرية لعدوه.

أ. د. سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، ج١، بغداد، ١٩٧٨ ص٣٨٩-٣٩٠.

(٣) أ. د. فاروق ناصر الراوي، التعبئة وأساليب القتال في الجيش الآشوري، كتاب الجيش والسلاح، ج٢، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٨، ص٤٥.

(٤) بخصوص فجر عصر السلالات، وظهور فكرة المواطنة في العراق القديم، انظر طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج١، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦، ص٢٥٥، وما بعدها.

(٥) م. ن. ص٣٢٦، وحول المشاركة السياسية والتمثيل النيابي من خلال مجلس الشيوخ والنواب، انظر، صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مطبعة مصر، بلا تاريخ، ص٨١ وما بعدها.

(٦) أ. د. تقي الدباغ، السلاح في عصور ما قبل التأريخ، الجيش والسلاح، ج١، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٨، ص٢٠. تشير المعلومات التأريخية الى أن الأسوار قد ظهرت لأول مرة في عصر حلف حوالي ٥٥٠٠ ق.م. وأول سور دفاعي نجده في موقع "آربجيه" في فترة حلف قرب الموصل، أي قبل عصر فجر السلالات بحوالي ٣٠٠٠ سنة، إذ من الطبيعي عندما تتجمع جماعة في مستوطن أن تفكر في بناء سور دفاعي وهذا ما حدث في آربجيه.
أ. د. سامي سعيد الأحمد، مقابلة شخصية بتاريخ ١٩٩٢/٦/٢٥.

(٧) د. مؤيد سعيد، العمارة العسكرية في العراق القديم، القلاع والأسوار وأنواع المعسكرات، الجيش والسلاح ج٢. م.س.ذ، ص١٩١.

(٨) انظر حول الصراع بين اوروك و كيش :

S.N KhamR , The Sumerians, Chicago, 1964. P.P. 97-100.

وأيضا، د. سامي سعيد الأحمد، كلكامش، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠، ص٤٢.

(٩) م. ن.

(١٠) اريائيل مراري، الحرب النفسية، ترجمة : مركز البحوث والمعلومات، مطبوع بالرونيو، بغداد، ص٦.

(١١) انظر حول أفكار ونظريات ليدل هارت العسكرية، مذكرات ليدل هارت، ط١، ترجمة بسام العلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،

١٩٧٨، ص٥ وما بعدها. وبخصوص معركة سيدان التي أسفرت عن هزيمة منكرة لفرنسا على أيدي ألمانيا، انظر منير بعلبكي، موسوعة المورد، ج٩، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣، ص١٧.

(١٢) انظر د. فاروق ناصر الراوي، من مشاهير القادة الآشوريين، الجيش والسلاح ح١/ م / س.د ص٨٩٠ / وأيضا طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة م.س.د. ص٥٣٢، وما بعدها.

(١٣) بخصوص المنحوتات الأكدية في عصر سرجون، وخلفائه والتي خلدت بطولات الملوك الأكديين انظر: أنطوان مورتكان، الفن في العراق القديم ترجمة د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، وزارة الأعلام، بغداد، ١٩٧٥، ص١٥٦، وما بعدها، وحول انتصارات الملك ريموش انظر: د. عامر سليمان، الجيش والسلاح في العصر الأكدي، الجيش والسلاح، ج١، م.س.ذ، ص١٣٣-١٣٤، وأيضا: طه باقر. م.س.د.، ص٣٦١، وما بعدها.

(١٤) د. بهيجة خليل اسماعيل، سلالة اسين الثانية، الجيش والسلاح، ج١، م.س.د، ص٢٢٤. وأيضا مجموعة من الباحثين العراقيين، العراق في التأريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣، ص٨٣، وما بعدها.

(١٥) رياض عبد الرحمن الدوري، آشور بانيبال، سيرته ومنجزاته، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، بغداد، ١٩٨٦، ص٢٠، وما بعدها.

(١٦) بخصوص حروب نبوخذ نصر واستخدام الحرب النفسية بالاستراتيجية في أو صح تطبيقاتها، انظر بشكل خاص د. بهنام أبو الصوف، الكلديون ودور نبوخذ نصر القيادي، ج١، م.س.د، ص٣٣٧-٣٥٠. وأيضا العراق في التاريخ، م.س.د، ص١٠٨-١٨٨.

(١٧) انظر بخصوص الحرب النفسية التكتيكية واختلافها عن الحرب النفسية الاستراتيجية، د. حميدة سميسم، الحرب الايرانية بغداد، ١٩٨٨، ص٢٥-٢٦.

(١٨) انظر حول مفهوم دعاية الميدان وعلاقتها بالحرب التكتيكية وتطبيقات هذه الدعاية، رجاء آل بهيش، الدعاية الايرانية في حرب الخليج، معهد البحوث والدراسات العربية، رسالة ماجستير غير منشورة بغداد، ١٩٨٨، ص٤٥٩، وما بعدها.

(١٩) د. فوزي رشيد، الجيش والسلاح في عصر فجر السلالات، الجيش والسلاح، ج١، م.س.ذ، ص٨٥.

(٢٠) م. ن، ص٧٨، ٩١.

يقصد بنكبات الفزع مجموعة من الفعاليات العسكرية العنيفة التي تشل تفكير العدو، وتجعله يقف مشدوها، وبالتالي انقياده ورضوخه لمشيئة خصمه، انظر حول تكتيكات الفزع. احمد بدر، الأعلام الدولي، دراسات في الاتصال والدعاية الدولية، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٧٧، ص٢٩٢.

(٢١) حاصر نبوخذ نصر مدينة أورشليم في كانون الأول عام ٥٨٩ ق.م وبناء على طلب الحاكم اليهودي تقدم فرعون مصر على رأس جيش مصري ولكن لم يسفر ذلك عن نتيجة حاسمة للموقف، فبعد تراجع القوات المصرية عاد الجيش البابلي ودخل المدينة منتصرا عام ٥٨٧ ق.م. وقد أدى الحصار الذي دام حوالي ثمانية عشر شهرا، وهي فترة ليست بالقصيرة أنهكت المحاصرين ودفعتهم للاستسلام.

للمزيد حول هذا الحصار، انظر حياة ابراهيم محمد، نبوخذ نصر الثاني، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، ١٩٨٣، ص٧٠، وما بعدها. وحول ما دار في هذا الحصار من حوار بين قائد الجيش الآشوري واليهود وكيف استطاع أن يستخدم بشكل رائع تطبيق استراتيجية اثارة الذعر بشكلها التكتيكي، انظر: الكتاب المقدس، كتاب الحياة ترجمة تفسيرية، ط٤، بلا دار نشر، ١٩٩٢، ص٥٠٨-٥٠٩.

(٢٢) جورج رو، العراق القديم ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، مراجعة د. فاضل عبد الواحد، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد ١٩٨٤، ص٢٨٥ وأيضا فاروق ناصر الراوي، م.س.د، ص١٣٤-١٣٧.

(٢٣) م.ن، ص١٢٧.

(٢٤) يوسف خلف، عبد الله، الجيش والسلاح في العهد الآشوري الحديث الدار العربية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧، ص٢٥٩.